قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن

محمد بن زغادي

أستاذ مساعد – قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء ساطعًا على واحدة من المدن الإسلامية التي سجلت بصمتها في التاريخ عبر ما اكتسبته من ابداعات فنية تنم عن الذوق الرفيع تمثلت تلك الإبداعات في شواهد أثرية مختلفة الطابع فمنها ما هو ديني ومنها ما هو مدني وعسكري، طُمس جزء منها نتيجةً لعمليات التحديث المنجزة في المجال والصناعي، استمدت هذه المدينة مقومات تنظيم نسيجها العمراني وعلاقاتها الاجتماعية ومعاملاتها التجارية من العقيدة الإسلامية، كل ذلك جاء انعكاسًا وتعبيرًا مباشرًا عن القيم والمبادئ التي تنفرد بها الحضارة العربية الإسلامية عن باقي الحضارات الإنسانية الأخرى. اسم هذه المدينة التي تحلت بطابع إسلامي عتيق -مدينة هُنَيْن- يطل جزءٌ منها على البحر الأبيض المتوسط في حين يمتد جزئها الآخرجنوبًا إلى الجبل المحاذي لها، ذاع صيتها في المجال التجاري خاصةً في الفترة الزيانية إلى الحد الذي أصبحت فيه الرئة الاقتصادية لهذه الدولة مع بلدان الضفة المقابلة مثل الميريا والبندقية، وذلك حسب ما يرويه لنا محمد حسن الوزان المعروف بـ: ليون الإفريقي، كما تحدث عنها محمد ابن مرزوق التلمساني في مؤلفه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن أنه وبأمر من السلطان المريني قام بشراء قطعة أرضية من أهالي مدينة هُنَيْن ليبني لهم فيها مسجدًا، هذا الاهتمام يعكس ما كان للمدينة من أهمية اكتسبتها من امتزج موقعها الاستراتيجي مع تاريخها لينتجا شكلاً من أشكال عبقرية المكان والزمان، وذاكرةً حافظةً للقيم الإسلامية، ومقوّمًا من المقوّمات الحضارية التي تنفرّد بها بين الثقافات والحضارات الإنسانية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٥ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٩ أبريل ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الدولة الزيانية، الدولة المرينية، المغرب الإسلامي، تلمسان، المدن الإسلامية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد بن زغادي. "قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٨٢ - ٨٧.

مُقَدِّمَة

تعتبر المدن ثمرة من ثمار التطور التاريخي للإنسانية عبر الزمن، إذ تحمل بين طياتها خبرات مختلفة الجوانب عما أبدعه الأسلاف قديمًا، هذا ما جعلها أشبه بسجل مرئي بالغ الدقة، لذلك كان لا بد من توفير العناية القصوى في دراستها دراسة مستوفية الجوانب يرى في هذا الصدد-لابَلاش-أن المدينة كالشجرة تربتها الجغرافيا وماؤها التاريخ فكما أننا لا نستطيع تخيل شجرة ظلها في السماء من دون تراب أو ماء، لا نستطيع تخيل مدينة مزدهرة من دون تاريخ عميق وجغرافية مكتملة التضاريس، لذلك دراسة البعد التاريخي للمدن يحظى بأهمية كبرى لأنه يصعب فهم أي مدينة من دون خلفية تاريخية تبين ما كان لها وما كان عليها، الشيء نفسه بالنسبة لمواقع المدن فدراسته تساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والمستوى الحضاري الذي تصل إليه الحواضر قديمًا، إذ يرتبط النشاط البشري ارتباطًا وثيقًا بالبيئة الطبيعية التي تلفه، بناءً على هذا جاء هذا المقال المعنون بـ: "قراءة في تاريخ مدينة هُنَيْن"، ملقيًا نظرة حول جغرافية المدينة المتميزة بروعة موقعها المقابل للبحر، ما جعلها مغرية للاستيطان البشري ومطمع الدول المجاورة، أما جانبها التاريخي فقد مرت بفترات تاريخية شهدت فيها ازدهارًا وتطورًا خاصةً على عهد الدولة الزيانية التي أصبحت فيها بمثابة الرئة الاقتصادية عبر

مينائها التجاري، كما شهدت تصدعًا وتشتتًا في كيانها نتيجة لأطماع المحتلين الإسبان.

أولاً: جغرافية المدينة

١/١- الموقع:

هُنَيْن مدينة ساحلية، وبوابة تلمسان على البحر، اسمها يُكتب بعدة رسوم: أَهْنَايْ –هُنْ –هَنَيْ-هُنَيْن هذا الأخير هو الاسم و الرسم القائم لحد الساعة، تقع على الساحل الوهراني و تبعد حوالي٦٠ كلم عن مدينة تلمسان،وحوالي ٣٠ كلم عن مدينة ندرومة، و(٤٠) كلم عن الحدود المغربية،[١] وهي تأخذ مجالاً من سلسلة جبال ترارة المعروفة بمسالكها الوعرة، وقمم جبالها الشاهقة الارتفاع تتموقع على سفح جبل المنزل المقابل للبحر، ممتدة بمساكنها ودُورِها نحو الشمال الشرقي، يجتاز المدينة واديين واد هُنَيْن الذي يعبرها من جهة الشمال، وواد مسايب أو ريغو الذي يعبرها هوا لآخر من جهة الغرب.

تظهر المدينة القديمة من فوق داخل أسوارها التي بقي منها القليل النادر، على شكل شبه منحرف،[٢] قاعدته الكبرى نحو الشرق، الموقع الذي حظيت به مدينة هُنَيْن عاد عليها بالنفع اقتصاديًا، إذ جعلها من المدن الرائدة في المجال التجاري، إذ منها وإليها كانت تتم المبادلات التجارية، لكن من جهة أخرى، جعلها ذلك الموقع الاستراتيجي عرضة لهجمات القراصنة والمحتلين الأجانب، مما فرض عليها لزامًا تشييد أسوار الحماية من المواد المحلية المتواجدة في المدينة المشكلة لمادة الطابيا، شأنها في ذلك شأن بقية حواضر المغرب الإسلامي.

٢/١- التضاريس:

هُنَيْن مدينة ساحلية، بين البر والبحر، موقعها هذا جعلها تتميز بمناخ رطب بارد شتاءً ومنعش صيفًا، تربتها خصبة ذات لون أحمر وبني، لا تستغل زراعيًا لصعوبة حرثها نظرًا لشدة انحدار غطاءها النباتي، ولأنه جيد يتمثل معظمه في شجر الصنوبر، فقديمًا في الفترة الموحدية قام السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي، بتجهيز أسطوله البحري من الأشجار المحاذية لمدينة هُنَيْن.[٣] مع مرور الزمن بقي الغطاء النباتي على حاله مع تغير طفيف، ومن أنواع الأشجار التي كانت سائدة هناك لدينا التين، اللوز، الخروب، البلوط، لكنها أبيدت بأكملها بسبب الحرق الذي طالها من الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٥٨م، لكن بعد الاستقلال أعادت الدولة تشجير المنطقة لتصبح على ما هي عليه اليوم. أما تضاريس المنطقة، فغنية بالمعادن التي كانت مستغلة منذ العهد الاستعماري، إذ من هُنَيْن كانت تصدر حمولات من الحديد والزنك، أضف إلى ذلك يتوفر في المنطقة الرخام الجيد النوعية، بحيث يتواجد في الوقت الحاضر ثلاث محاجر في المدينة، تختص باستخراج مادة الرخام. إن هذه السمات التي طبعت تضاريس مدينة هُنَيْن جعلتها مكانًا استراتيجيًا متميزًا يحمل بين طياته بصمات الأسلاف منذ الزمن القديم، اكتسبته من كونها مدينة ساحلية، لذلك اعتبرت النافذة التي تطل من خلالها الدولة الزيانية على العالم، من خلال المعاملات التجارية مع المدن الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

ثانيًا: تاريخ المدينة

وضع الشمال الغربي من المغرب الأوسط بصمته في سجل الحضارة الإنسانية قديمًا، عبر ما تركه الأسلاف من مخلفات تشهد على إبداعاتهم ونشاطاتهم في المنطقة، ما ساعدهم في ذلك على ما يلي: الأمن ووفرة الماء والمأكل، إذ إن أغلب تضاريس المنطقة أشبه أن تكون حصونًا طبيعية تساعد على توفير الأمن، أما فيما يخص وفرة أسباب المعيشة من مأكل ومشرب فخصوبة التربة ووجود منابع الماء ساعدت على الاستقرار، من المناطق التي توفرت على العاملين السابقين الذكر منطقة ترارة، هذه الأخيرة جمعت ولحد الساعة تجمعات بشرية كبيرة ومهمة على الصعيد التاريخي، ومن أهم مدنها: مدينة هُنَيْن، فعلى الرغم من أن اسمها لم يكن مذكورًا أو معروفًا كشهرة سيقا وأرشقون اللتان ترددا عليهما القرطاجيون باستمرار والرومان بفعل عامل التجارة،[٤] إلا أن هناك مَنْ ذكر أن اسمها في تلك الفترة كان جبساريا (Gypsaria) أو أرتسيغا (Artisiga)، وذلك حسب ما أورده بعض المؤرخين القدماء أمثال هيرودوت، سترابون، الاسمان لهما ارتباط بالمناجم والمعادن، دارسي المنطقة من الجيولوجيين، عثروا على عدد كبير من مناجم الفوسفات والجبس والرخام، كما دلت التنقيبات الأثرية على استخدام مادة الرخام قديمًا في مساكن المدينة، وفي سنة ١٨٥٦م، قام ماك كارتي (Carthy Mac) بنشر دراسة في المجلة الإفريقية حول منطقة تلمسان، مستندًا في ذلك إلى مؤشرات أحد جغرافي القرن الثاني ميلادي، بطليموس، أشار هذا الأخير إلى وجود كميات معتبرة من مادة الجبس قرب مدينة هُنَيْن، ولكن تبقى كفرضيات،[٥] لعدم وجود أدلة كافية فيما يتعلق بماهية اسم مدينة هُنَيْن.

يذكر صاحب القرطاس أن أول ذكر له يرجع إلى سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) عندما فرّ أحد المؤذنين من قبضة السلطان، بسبب ادعائه النبوة وتفسيره للقرآن الكريم حسب ما يمليه عليه هواه مستعينا بميناء هُنَيْن ليتجه إلى الأندلس، هذه الحادثة، أشار إليها كذلك صاحب الاستقصاء، بعد ذلك نجد أن البكري تحدث عن هُنَيْن في القرن (٥ هـ/١١م)، واصفًا إياها على أنها عبارة عن حصن ذو أهمية تجارية وأمنية، أما الإدريسي فقد ذكرها على أنها مدينة عامرة مما يعطينا فكرة عن تغيرها وتحولها من حصن إلى مدينة آهلة بالسكان والعمران وكثرة الأسواق وازدهار التجارة، وذلك انطلاقًا من وصف الإدريسي لها كما ذكر أنها كانت محاطة بسور مبني بإتقان يرجح على أنه سور المدينة وليس سور القصبة طريقة بناءه بالتراب المدكوك هذه التقنية ميزة معروفة منذ القرن (٥ هـ/١١م)، هناك مَنْ يرجح تاريخ بناءه إلى المرابطين باعتبار هُنَيْن كندرومة تابعة إدرايًا لتلمسان في العهد المرابطي.[٦]

مع بداية سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) تحدث ياقوت الحموي في معجم البلدان عن مدينة هُنَيْن بقوله "... مَوْضِعٌ مِنَ السَّاحِلِ التِلِمْسَانِي، بِالقُرْبِ مِنْهَا يَتَوَاجَدُ مَسْقَطُ رَأْسِ عَبْدِ المُؤْمِنِ بْنُ عَلِي بِتَاجْرَا ..."،[٧] يبدو من هذا التقديم أن المدينة عرفت تراجعًا في نشاطها، تزامن ذلك مع تراجع نفوذ المرابطين في شمال افريقية، لكن مع سطوع نجم الموحدين تحت زعامة عبد المؤمن بن علي تألقت هُنَيْن وعادت تُذكر في كتب الجغرافيين، وإذا ما قارنا جميع ما تم تقديمه من وصف عن هُنَيْن في كتب الرحالة، نجد أنَّ البكري قد وصفها بالحصن وربطها بمدينة ندرومة، في حين أن باقي الجغرافيين فيما بعد لم يصفوها كحصن، وإنما كصورة لمدينة ساحلية تربطها علاقة مباشرة بمدينة تلمسان العاصمة الاقتصادية أي أن خط تطورها شيئًا بلغ أوجه وأصبح للمدينة أهمية تجارية، فمنها وإليها كانت تستورد وتصدر البضائع، مع مدن الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، كمدينة ملقا وألميريا.

وتتضح الأهمية السالفة الذكر عند الزيانيين الذين اعتمدوا وبشكل كبير في نشاطهم التجاري على ميناء هُنَيْن إلى الحد الذي جاوز فيه أهمية ميناء وهران، وذلك لقربه من العاصمة تلمسان بحوالي (٦٠) كلم فقط، مشكلاً الرئة الاقتصادية للدولة الزيانية آنذاك، يدعم هذه الفكرة ما أورده الحسن الوزان في زيارته لمدينة هُنَيْن، وذلك تحديدًا في سنة ١٥١٧م قبل الاكتساح الأسباني للمدينة قائلاً: "... مَدِينَةٌ جَمِيلَةٌ، ذَاتُ مَكَانٍ مُتَمَيِز اسْتِرَاتِيجِي، تَمْتَلِكُ مَرْفَأً صَغِيرًا، مُحَاطٌ بِبُرْجَيْن عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشَّمَال، تَأْتِي إِلَيْهِ السُّفُنُ مِن البُنْدُقِيَة، السِّلَعُ التِي تَدْخُلُ أَسْوَاقَ تِلِمْسَان، وَتَعُودُ بِالرِّبْحِ الكَثِيرِ عَلَى التُّجَار، أُنَاسُ مَدِينَة هُنَيْن يَتَسِمُونَ بِالطِّيبَة، أَغْلَبِيَتُهُم يُزَاوِلُونَ مِهْنَةَ التِجَارَة فِي مَادَتَيْ القُطْن وَالقُمَاش، مَسَاكِنُهُم ذَاتُ شَكْل هَنْدَسِي رَائِع، كُلُ وَاحِدٍ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى فِنَاء يَتَوَاجُدُ بِهِ مَكَانٌ لِغَرْسِ العِنَب، وَالمَنْزِل كَكُل ذُو بِلاَطَاتٍ مُخْتَلِفَة الأَلْوَان، الجُدْرَان مَكْسِيَة بِفُسَيْفِسَاء رَائِعَة..."،[٨] ما ذكره الحسن الوزان ينم عن مدى الرقي الاجتماعي والاقتصادي الحاصل في المدينة أيام الدولة الزيانية، هذا الأمر نجده مذكورًا عند بعض الرحالة في القرن الرابع عشر الميلادي، أمثال عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي في مؤلفه "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، المتوفى سنة ١٣٣٨م كتابه مقارب في تقديمه لمعجم البلدان لصاحبه ياقوت الحموي، رحَّالة آخر يدعى البَلَوِي، المنحدر من الأندلس ذكر مدينة هُنَيْن في رحلته[٩] كما يلي: "... مَدِينَة خَلَّابَة لَيْسَت لا بِالصَّغِيرَة وَلا بالكَبِيرَة، تَجْمَع بَيْنَ البَرّ وَالبَحْر، تَقَعُ فِي أَسْفَلِ جَبَلَيْن، مُشَيَّدَة علَى أَرْضٍ مُنْخَفِضَة وَمُنْبَسِطَة، تَعْلُوهَا قَلْعَة يَتَوَاجُد بِهَا مَكَانٌ لِوَضْعِ الأَسْلِحَة، أَسْوَاقُهَا نَشِطَة، مَسَاجِدُهَا تَتَمَيَزُ بِحَرَكَة عِلْمِيَة وَاسِعَة وَتَجْمُع دِيْنِي دَائِم مُجَاوِرَة لِلأَنْدَلُس التِي اسْتَلْهَمَت مِنْهَا بَعْضَ الرُّقِي..."، كما يذكرها القلقشندى الذي ألف كتابه سنة (٨١٤هـ/١٤١٢م)، المعنون بـ: صبح الأعشى في صناعة البناء، متحدثًا عن مدينة تلمسان أولاً، ثم عرج على ذكر مدينة هُنَيْن على أنها تقابل مدينة ألميريا في الضفة الأخرى.

يُستدل مما تقدم ذكره من الرحالة أن مدينة هُنَيْن عاشت أوج عظمتها ورقيها أيام الزيانيين، إذ أصبحت همزة وصل بين الشمال والجنوب، والرئة الاقتصادية للدولة الزيانية، عبر المبادلات التجارية التي كانت تتم من مينائها، حيث قدِمت إليها سفن الأندلس التابعة لبني الأحمر وأخرى من مالغا وألميرية، إضافة إلى سفن مسيحية من برشلونة والبندقية، وفلورانسا وكاطلونيا، إضافة إلى ما عرفته هُنَيْن من رخاء اقتصادي عرفت كذلك نشاط ديني مكثف، إذ قدم إليها بعض من علماء الدين مثل: أحمد بن الحسن الغماري الذي كان يحضر صلوات الجمعة بهُنَيْن، كما عمل بها شريف الرحالة أبو علي حسن ابن شريف أبي يعقوب يوسف ابن يحي الحسني السبتي قاضيًا، الشيء نفسه يقال عن أبي عثمان سعيد ابن محمد العقباني المنحدر من الأندلس، مدينة هُنَيْن لم تسلم هي الأخرى من الصراع المريني الزياني، لا لشيء إلا لأنها ذات أهمية اقتصادية بمكانها الاستراتيجي المفتوح على العالم من جهة البحر، لذلك لم يدخروا جهدًا في الاستيلاء عليها، فقاموا بعزلها عن العاصمة تلمسان، كما قطعوا صلتها بالضفة الأخرى لكي لا يتلق الزيانيون أية إمدادات من بني الأحمر، قام أبو يعقوب يوسف المريني في احتلاله لمدينة تلمسان بعد محاصرته لها[١٠] ببعث جيش آخر إلى هُنَيْن، فدخلت تحت طاعته وبايعه زعماء المدينة، لكن بعد مغادرة المرينيين وفشل حصارهم ترجع هُنَيْن إلى سابق عهدها، إلى الحد الذي تم فيه طرد مستخلفي المرينيين على المدينة.

في المرة الثانية التي عاد فيها أبو الحسن لغزو تلمسان استولى على المدن الساحلية التابعة لها كوهران وهُنَيْن سنة (٧٣٦هـ/١٣٥٥م)، محتلاً بذلك كافة المغرب الأوسط، ويورد لنا ابن مرزوق نصًا يتكلم فيه عن مايلي: " ... وَمِنهَا الجَامِعُ الذِّي أَنْشَأَهُ بِمَدِينَة هُنَيْن، وكَانَ شِرَاءُ مَوْضِعِهِ عَلَى يَدَيْ وَهُوَ مَسْجِدُ خُطْبَة، وَصَوْمَعَةٌ فِيهِ كَبِيرَة مُخْتَلِفَة..."،[١١] هذا الحديث يؤكد ما لمدينة هُنَيْن من أهمية، دفعت بالسلطان المريني أبو الحسن بناء مسجد جامع بالمدينة الذي لم يتبق منه إلا النواة الداخلية للمئذنة التي يتحدث عنها كنال (Canal) أنه رآها ما بين البرج الرابع والخامس من أسوار المدينة،[١٢] وفي خضم الصراع الحاصل بين المرينيين والزيانيين والذي كان في حركة مد وجزر بين الطرفين، وبالتحديد في الفترة التي أكمل فيها أبوعنان المريني احتلاله على المغرب الأوسط، قامت بعض القبائل المجاورة لمدينة هُنَيْن اغتنام فرصة ذلك النزاع للاستقلال عن السلطة الزيانية لتكوّن لنفسها وجودًا خاص بها، من تلك القبائل نذكر قبيلة بني عابد، التي تفطن لها السلطان الزياني أبو ثابت، إذ قُتل العديد منهم وأسر ما تبقى، كما أخذ زعيم تلك الثورة مكبلاً بالحديد لتلمسان أين توفي بأحد سجونها هناك.[١٣]

قبيلة أخرى تحمل اسم قبيلة ذوي عبيد الله، قامت هذه الأخيرة بالسيطرة على الطريق التجاري الرابط بين تلمسان العاصمة ومدينة هُنَيْن فارضةً بذلك إتاوة على كل مَنْ يستعمل ذلك المسلك طوال أيام السنة، وبعد انتهاء الصراع المريني الزياني رجع لمدينة هُنَيْن وجهها المشرق تحت الحكم الزياني، لكن سرعان ما بدأ يتغير الوضع تحت طائلة التهديد الجديد القادم من اسبانيا، إذ وبعد سقوط الأندلس كلّية مع مطلع (١٠هـ/١٦م) وبالتحديد سنة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م)، بدأت إسبانيا بشن حركة الاسترداد التي بدأتها في الأندلس على المغرب الأوسط، شجعها في ذلك ضعف واضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المغرب الأوسط، أول ما قامت به هو احتلال مدينة وهران سنة (٩١٥ هـ/١٥٠٩م)،[١٤] حينها قام أهالي تلمسان بدعوة التجار الذين كانوا يرتادون على سواحلها إلى النزول بميناء مدينة هُنَيْن بعد هذه الواقعة، برز حدث آخر وهو موت السلطان الزياني أبو حمو موسى الثالث الذي كان يدفع إتاوة سنوية لإسبانيا مقدارها: اثنا عشرة ألف أوقية ذهب واثنا عشرة حصان، وستة من أنثى النسر، تولى بعد الحكم أحد إخوته المسمّى أبو محمد عبد الله، الذي دخل في مشادات حادة مع ابنه حول سدة الحكم،[١٥] الأمر الذي زاد في بلبلة الأوضاع السياسية وطمع اسبانيا في الظفر في ميناء هُنَيْن، فقام شارل الخامس بإرسال قائده العسكري المسمّى ألفارو دوبازان (Alvaro de bazan)، في شهر أوت ١٥٣١م، بأسطول قوي مؤلف من إحدى عشرة سفينة حربية وناقلتين ومائتين وخمسين جندي، جُلبت من حامية وهران، ومئونة لمدة شهرين، تم الهجوم على المدينة بغتة للتمكن من احتلالها، إذ لم يكن في المدينة عدد كاف من الجند، إضافة إلى عدم دراية السكان بالأساليب الحربية، وهكذا سقطت المدينة بيد الأسبان وتمكن الملك شارل الخامس من الظفر بها وتحقيق ما يريده من انتقام من أهالي المدينة وتجار تلمسان الذين ساعدوا في إيواء القراصنة وخرجوا معهم لشن بعض الغارات على شواطئ إسبانيا، وذلك بعد الاحتلال الذي منيت به مدينة وهران،[١٦] بعث قائد الأسطول الحربي رسالة يثمن فيها نجاح احتلال مدينة هُنَيْن إلى الملك شارل الخامس يقول فيها: "... أَنَّا أَعْتَبِر الاسْتِيلَاءَ عَلَى هُنَيْن أَمْرًا بَالِغَ الأَهَمِيَة، إذْ سَتَتَمَكَّن مِن الآنَ فَصَاعِدًا مِن مُعَاقَبَة السُّلْطَان التلمساني وَإِخْضَاعِه لِلْوَفَاءِ بِوُعُودِهِ، الطَّرِيقُ المُؤَدِي إِلَى تِلِمْسَان مِنْ هُنَيْن قَرِيبٌ جِدًا، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلِجَ إِلَى المَمْلَكَة مِنْ دُونِ عَنَاء، لِلاسْتِيلَاءِ وَأَخْذِ أَحْسَنِ مَا تَجُودُ بِهِ تِلِمْسَان مِنَ السُّلْطَان مَوْلاي عبد الله..."[١٧].

هدف الاحتلال الاسباني هو الحصول على تلمسان كافة ونهب ما فيها، لذلك تركت إسبانيا حامية كبيرة في المدينة مؤلفة من سبعة مائة جندي و(١٥) مدفعًا، بقيت تلك الحامية لمدة ثلاث سنوات لتتخلى في الأخير عن المدينة للتضييق الذي ألحقه السكان والتجار بالجند، ولعدم تقاضي الجند رواتبهم لمدة ثمانية عشرة شهرًا، قام أولئك الجند بحرق وتخريب المساكن والمساجد وجعلوا عاليها سافلها[١٨] ليخرجوا منها في شهر ديسمبر سنة ١٥٣٤م، نتيجة لذلك فقدت هُنَيْن رونقها وطابعها العمراني والتجاري الذي اكتسبته خلال فترات حياتها من كونها مدينة ساحلية وتجارية، انطوت من جديد تحت لواء تلمسان التابعة للحكم التركي في الجزائر التي استعانت بالأتراك لمواجهة خطر الإسبان، وفي سنة ١٥٦٨م وقعت معركة كبيرة بحرية بالقرب من هُنَيْن بين السفن التركية بقيادة صالح رايس والسفن الاسبانية بقيادة دون جوان دوتريش(DoneJoineDetriche)[١٩] انتهت بتفوق الأسطول التركي، لينتهي بذلك الخطر الاسباني على سواحل المغرب الأوسط إذ لم يستنقذ للإسلام مدينة هُنَيْن والمغرب الأوسط إلا تدخل الأتراك الذين أنهوا حكم الزيانيين،[٢٠] لحق هُنَيْن ما لحق بتلمسان باعتبارها جزء لا يتجزأ منها، إذ كان هناك تشارك في الأحداث السياسية.

خاتمة

من خلال ما ورد ذكره في متن هذا البحث تأكد جليًا أن لجميع المدن حياة شبيهة بحياة البشر، إذ تولد ثم تنمو وتبدأ مسيرتها لتصبح يافعة شابة وبعدها تموت وتختفي إلى الأبد، تاركة وراءها مخلفات تنطق بكل موضوعية عما جادت به قريحة من سكنها وعمّر فيها، لأنها بمثابة نافذة نطل من خلالها على تجاربهم وخبراتهم بمختلف المجالات سواءً كانت معمارية، اجتماعية، سياسية، تجارية، لذلك يرى الجغرافيون أن المدينة حقيقة مادية يمكن التعرف عليها من موقعها ومن مظهر مبانيها وطبيعة تنظيمها العمراني في احتوائها على المسجد الجامع كنواة مركزية وتوزيع بقية العمائر الأخرى من حوله، تبقى مدينة هُنَيْن موضوع بحثنا إحدى أهم المدن الإسلامية التي حظيت باستطان الأسلاف عليها، نظرًا لتميزها بموقع جغرافي خلاب، تحدث عنه رحَّالة يدعى البَلَوِي ذو الأصل الأندلسي، ذكر مدينة هُنَيْن في رحلته كما يلي: "....مَدِيَنة خَلَابَة لَيْسَت لا بِالصَّغِيرَة وَلا بالكَبِيرَة، تَجْمَع بَيْنَ البَرِ وَالبَحْرِ، تَقَعُ فِي أَسْفَلِ جَبَلَيْن، مُشَيَّدَة عَلَى أَرْضٍ مُنْخَفِضَة وَمُنْبَسِطَة، تَعْلُوهَا قَلْعَة يَتَوَاجُد بِهَا مَكَانٌ لِوَضْعِ الأَسْلِحَة، أَسْوَاقُهَا نَشِطَة، مَسَاجِدُهَا تَتَمَيَزُ بِحَرَكَة عِلْمِيَة وَاسِعَة وَتجَمُعٍ دِيّنِي دَائِم مُجَاوِرَة لِلأَنْدَلُس التِي اسْتَلْهَمَت مِنْهَا بَعْضَ الرُّقِيّ..." يُمكننا هذا الوصف من أخذ نظرة شاملة عن المدينة ومستواها المعماري والثقافي، ومقارنته مع ما آلت إليه من تحطيم في بنيتها التاريخية والأثرية.

الملاحق:

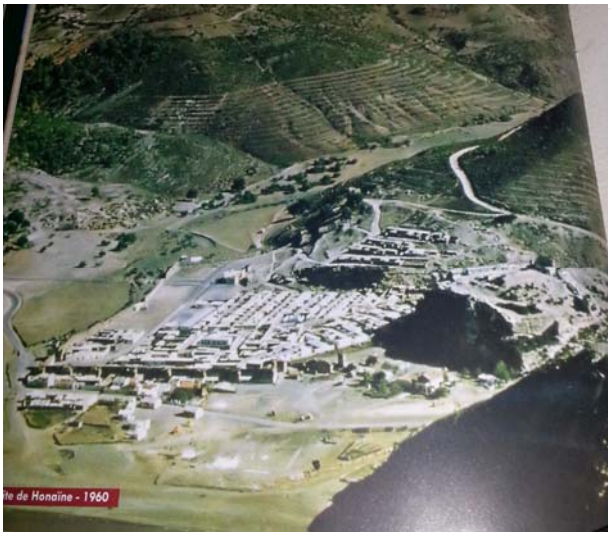

صورة رقم (١)

منظر عام لمدينة هُنَيْن عام: ١٩٦٠

المصدر: Abderrahmane Khalifa, Opcit, p71

صورة رقم (٣)

منظر لجزء من مدينة هُنَيْن تظهر فيه الأسوار الدِّفاعية-٢٠١٣

المصدر: الباحث

صورة رقم (٢)

منظر عام لمدينة هُنَيْن ٢٠١٣

المصدر: الباحث

صورة رقم (٤)

منظر للجزء المتبقي من القلعة-٢٠١٣

المصدر: الباحث

الهَوامِشُ:

(١) عبد العزيز محمود لعرج، **"مدينة هُنَيْن: تاريخها وآثارها"**، الملتقى الدولي السادس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، ٢٠٠٦، ص١٣١.

(2) Abderrahmane Khelifa, Honaine à Travers ses monuments, colloque National sur: Honaine passé et present, Février 1985, P. 15.

(3) Abdelaziz gawar, Honaïne et son environnement Agro-maritime caractéristique et vocation économique, colloque National sur: Honaine Passé et Présent, Février 1985, P. 21.

(٤) عبد العزيز محمود لعرج، **مدينة هُنَيْن: تاريخها وآثارها**، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، جمع وتقديم الجمعية الموحدية، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ص١٣١.

(5) Jean Louis Declais, le schism Donatiste et ses retombées régionales, colloque National sur: Honaine passé et present, Tlemcen, Février 1985, P. 08

(٦) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٣-١٣٤.

(7) Abderrahmane Khalifa, Ibid,P198.

(8) Alfred Berenguer, Intermède Espagnol (1531 – 1534), colloque National sur Honaine passé et présent, Février 1985, P. 04.

(9) Abderrahmane Khalifa, Honaïne ancien port du royaume de tlemcen, Edition DALIMEN, Algérie, 2008, p. 226.

(١٠) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٥.

(١١) محمد ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعيّاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٨١، ص٤٠٣.

(١٢) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٣٦.

(١٣) عبد الحميد بن اشنهو، مرجع سابق، ص١٥.

(١٤) عبد الحميد ابن شنهو، مرجع سابق، ص١٥.

(15) Alfred Berenguer, Ibid, P.03

(١٦) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، ج٢، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص٢٩٦.

(17) Alfred Berenguer, Ibid, P.0٤.

(١٨) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(١٤٩٢-١٧٢٢)**، ط١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص٢٣٩.

(١٩) عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص١٤٠.

(٢٠) ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق هاني سلامة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001، ص٣٦.